تفسير سورة الزمر كاملة

سورة الزمر

رامي حنفي محمود

تفسير سورة الزمر كاملة

شبكة الألوكة
www.alukah.net

شبكة الألوكة

تفسير سورة الزمر كاملة

رامي حنفي محمود

تفسير سورة الزمر كاملة

١. الربع الأول من سورة الزمر

– الآية ١: (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ إنما هو ﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ الذي لا يمنعه شيءٌ مِن فِعل ما يريد، ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ في أفعاله وأحكامه.

– الآية ٢: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ – أيها الرسول – ﴿ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ (وهو القرآن المُشتمل على الحق الواضح، والأحكام العادلة) ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أي اعبد الله وحده، وأخلِص له جميع عبادتك.

– الآية ٣: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾: يعني إنّ الله لا يَقبل من العبادات إلا ما كان خالصاً لوجهه، ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾: أي اتخذوا آلهةً باطلة، عَبَدوها مِن دون الله تعالى، فهؤلاء قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ يعني ما نعبد تلك الآلهة إلا لتشفع لنا عند الله، وتقرِّبنا عنده مَنزلة.

♦ وقد كفروا بذلك القول؛ لأن العبادة لله وحده، وهو سبحانه لا يَحتاجُ إلى واسطةٍ بينه وبين خلقه في العبادة (لأنه ليس كمُلوك الدنيا الذين يَحتاجون إلى واسِطةٍ لقضاء مصالح الناس)، وما أنزل الله تعالى مِن حُجَّةٍ بشأن هذه الأصنام تدل على أنها تستحق العبادة، أو أنها تقرّبهم إليه كما يزعمون، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين المؤمنين الذين أخلصوا عبادتهم لله وحده وبين المُشركِين الذين أشركوا معه غيره، فيَقضي بيهم سبحانه يوم القيامة ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ مِن أمْر الدين، ويجازي كُلاً بما يَستحق ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي لا يوفق للهداية مَن يفترون عليه الكذب، فيزعمون أنّ له سبحانه شريكًا أو ولدًا يشفعون لهم عنده، ويكفرون بآياته وحُجَجه.

– الآية ٤، والآية ٥: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي: لَاختارَ من مخلوقاته ما يشاء، ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾: أي تنزَّه الله وتقدَّس عن أن يكون له ولد (لغِناهُ عن ذلك وعدم حاجته إلى ما يَحتاجه البشر)، فـ ﴿ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ الذي قَهَرَ كل شيء وغَلَبَه، وخضعتْ جميع المخلوقات لتدبيره وأمْره.

♦ ثم وَضّحَ سبحانه لعبادة بعض البراهين على استحقاقه وحده للعبادة، فقال: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾: أي خَلَقهم سبحانه ليُذكَر فيهما ويُشكر، وليَستدِل بهما العباد على عَظَمة خالقهم، وأنه الخالق القادر المستحق وحده للعبادة، وعلى قدرته سبحانه على إحياء الموتى (لأنّ ذلك أهْوَنُ عليه مِن خَلْق السماوات والأرض)، ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ أي يُدخِل سبحانهُ الليلَ على النهار، فيُلبِسَهُ إيَّاهُ حتى يُذهِب نُوره، ويُدخِل النهار على الليل فيَسترَه به حتى يُذهِب ظلامه (فكأنه سبحانه لَفَّهُ عليه وغطّاه به، إذ حقيقة التكوير: اللَّفّ والتغطية)، ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك إلا الله وحده.

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أي ذَلَّلَهما لمنافع العباد، ﴿ كُلٌّ ﴾ مِن الشمس والقمر ﴿ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي يَدورُ في مَداره الخاص به إلى يوم القيامة، ﴿ أَلَا ﴾ إنّ الذي فعل هذه الأفعال، وأنعم على خلقه بهذه النعم ﴿ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يمنعه شيءٌ مِن فِعل ما يريد في كونه، القادر على الانتقام مِمَّن أشرك به وعصاه، ومع ذلك فإنه سبحانه ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ لكل مَن

تاب إليه وطلب رضاه، (ولو عرف العُصاة والمُشرِكون هذا، ما أصَرُّوا على ضَلالهم، ولَسارَعوا بالتوبة إلى ربهم، ليَغفر لهم ذنوبهم).

- الآية ٦: ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ ربكم - أيها الناس - ﴿ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وهي نفس آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي خلق حواء عليها السلام مِن ضلع آدم ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أي خلق من الأنعام ثمانية أنواع لمنافعكم (وهي الإبل والبقر والضأن والماعز) (وجَعَلَ من كل نوع منهم ذكرا وأنثى، فبهذا صاروا ثمانية أنواع) (ولعل المقصود مِن قوله تعالى: (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ) أنه سبحانه أنزل أصل هذه الأنعام من السماء ثم تكاثرت، كما أنزل آدم وحواء من السماء، والله أعلم).

♦ وقوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ (أي مرحلة بعد أخرى: ابتداءً بالنطفة ثم العَلَقة ثم المُضغة ثم العظام ثم اللحم ثم الروح)، وذلك ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ (وهي ظلمات البطن والرحم والمَشِيمة)، وهذا بُرهان رابع على استحقاق الله وحده للعبادة، ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ أي الذي خلق هذه الأشياء، هو ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ الذي ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ كله، فلذلك ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾: أي لا يستحق العبادة إلا هو (فهو الذي خَلَقكم ورزَقكم وسَخّر لكم مِن مُلكه ما ينفعكم) ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ يعني فكيف تُصرَفون بعد ذلك عن عبادته إلى عبادة خَلقه؟!

- الآية ٧: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا ﴾ بتوحيد ربكم - بعد هذه الأدِلّة -: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ﴾ أي لا يحتاج إليكم ولا إلى عبادتكم، وأنتم الفقراء إليه، ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ ولا يأمرهم به، ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾: أي يَرضى لكم شُكر نعمه عليكم ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾: أي لا تؤاخَذ نفسٌ شاكرة بذنب نفسٍ كافرة، ولا تحمل نفسٌ إثم نفسٍ أخرى، إلا إذا كانت سبباً في إضلالها (ولم تَتُب عن ذلك الإضلال)، ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ويحاسبكم على جميع أعمالكم، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي عليمٌ بكل ما تُخفيه صدورهم من النِيّات والخواطر.

- الآية ٨، والآية ٩: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ ﴾ أي شدة وبلاء: ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أي استغاث بربه راجعاً إليه وحده بالدعاء والتوبة، ليكشف عنهم ضره، ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ ﴾ أي أعطاهُ سبحانه ﴿ نِعْمَةً مِنْهُ ﴾ (وهي كشف الضرَّ عنه): ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ﴾: أي استمرَّ على ما كانَ عليه من الغفلة والجحود قبل أن يُصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الشدة والبلاء، وترَكَ الشكر لربه الذي فرَّج عنه كربه، كأنه لم يكن هو ذاك الذي دَعا بكَشْف ضُرّه، ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾: أي جَعَلَ له شُركاءَ فعبدهم معه، وأشرك بربه المُنعِم عليه بالنجاة، ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي: لتكون عاقبته أن يُضِلّ نفسه ويُضِلّ غيره عن دين الله فيَستحق العذاب، ﴿ قُلْ ﴾ له أيها الرسول - متوعدًا -: ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ ﴾ وشهواتك الرخيصة ﴿ قَلِيلًا ﴾ حتى ينتهي أجلك ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أي مِن أهلها الخالدين فيها.

♦ أهذا الجاحد خيرٌ ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ يعني أم مَن هو عابدٌ لربه طائعٌ له، يقضي ساعات الليل ﴿ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ في صلاة الليل ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴾: أي يخاف عذاب الآخرة ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ بمغفرة ذنوبه ودخول جنته؟، ﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي يعلمون أمْرَ دينهم، ويعلمون ما يُرضي ربهم فيفعلوه، وما يُغضبه فيجتنبوه، فهل يتساوى هؤلاء ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون شيئًا من ذلك؟! لا يستوون أبداً ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو

﴿ الْأَلْبَابِ ﴾ أي أصحاب العقول السليمة، فهؤلاء هم الذين يتعظون بما يسمعون من الآيات والإرشادات الربانية، ويعرفون الفرق بين العلم والجهل والهدى والضلال (وفي الآية حَثٌّ على طلب العلم وأهميته).

- الآية ١٠: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي احذروا عذابه (وذلك بطاعته واجتناب معصيته)، فإنّ ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ - أي أحسَنوا عبادة ربهم ومُراقبتهم له - أولئك لهم ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ أي حَسَنة في الدنيا (كالصحة والرزق والنصر وغير ذلك)، وحَسَنة في الآخرة (وهي الجنة)، ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فهاجِروا فيها إلى حيث تعبدون ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم، ثم شَجَّعهم سبحانه على الهجرة بقوله: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ ﴾ (وهُم الصابرون على فِعل الطاعات، والصابرون على اجتناب المعاصي، والصابرون على ما يُصيبهم من البلاء، ومِن ذلك: صَبرُهم على الهجرة والاغتراب مِن أجل ربهم)، فأولئك يُعطَونَ في الآخرةِ ﴿ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يعني بغير حَدّ ولا عَدّ ولا مقدار (ألاَ فاصبِروا ياعبادَ الله مِن أجل الجنة).

- الآية ١١، والآية ١٢: ﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول للناس: ﴿ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾: يعني إنّ الله قد أمَرَني - ومَن اتّبعني - بإخلاص العبادة له وحده ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يعني أول مَن أسلم مِن أمّتي، وخضع لأوامر الله رب العالمين.

- الآية ١٣: ﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول: ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أن يُنزِلَ بي ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو عذابُ يوم القيامة.

- الآية ١٤، والآية ١٥، والآية ١٦: ﴿ قُلِ ﴾ أيها الرسول لهؤلاء المُشركون: ﴿ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾: يعني إني أعبد اللهَ وحده لا شريك له، مخلصًا له عبادتي وطاعتي، (ولعل الله تعالى قد أعاد الأمر بإخلاص العبادة له، للتأكيد على أهمية ذلك الأمر، إذ التكرار يكونُ للتأكيد والتنبيه على أهمية الشيء)، ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ (فإنّ ذلك لن يضر اللهَ شيئًا، وإنما ضرره عائدٌ عليكم)، ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ حقاً هُم ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي حَرَموا أنفسهم وأهلِيهم من دخول الجنة، لأنهم أضَلُّوهم عن الدين الحق، (وقد قال بعض المُفسّرين في معنى خُسران الأهل يوم القيامة: هو حِرمانهم من الحور العين، اللاتي كُنّ لهم في الجنة، لو أنهم آمنوا بالحق واتقوا ربهم) ﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أي هو الخسران الواضح، وأولئك الخاسرون ﴿ لَهُمْ ﴾ - في جهنم - ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ﴾ أي قِطَع من عذاب النار - على هيئة الظُّلّ - شديدة الحرارة، تغطي رؤوسهم ﴿ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ تُلهِب أرجلهم، ﴿ ذَلِكَ ﴾ العذاب الموصوف ﴿ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ ليَحْذَروا مخالفة أمره، ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أي خافوا عذابي، واحذروا فِعل ما يُغضبني.

- الآية ١٧، والآية ١٨: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ أي اجتنبوا طاعة الشيطان وعبادة غير الله تعالى ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي رجعوا إلى الله تعالى بالتوبة والإيمان وإخلاص العبادة، أولئك ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ في الحياة الدنيا (بالثناء الحَسَن وتوفيق الله لهم)، وفي الآخرةِ برضوان الله والنعيم الدائم في الجنة، ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ أي: بَشِّر أيها النبي عبادي ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (وأحسن الكلام وأرشده هو كلام الله تعالى، ثم كلام رسوله صلى الله عليه وسلم) ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾: أي وفقّهم للرشاد والسَداد، وهَداهم لأحسن الأخلاق والأعمال، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي أصحاب العقول السليمة.

- الآية ١٩: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ أي وَجَبَ عليه الحُكم بالعذاب؛ لاستمراره على ضَلاله وعِناده، فإنه لا حيلة لك أيها الرسول في هدايته ﴿ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾: يعني هل تَقدر أن تنقذ مَن في النار؟ لا تقدر على ذلك، إذاً فلا تحزن على تكذيبهم وإعراضهم، فقد بلَّغتهم، والله أعلم بمَن يستحق الهداية (وهو الذي يَطلبها مِن ربه بصدق ولا يتكبر عن الانقياد للحق).

- الآية ٢٠: ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ أي جعلوا بينهم وبين عذابه وقاية (وذلك بطاعته وإخلاص عبادته وترْك معصيته)، أولئك ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ ﴾ أي لهم في الجنة غُرَفٌ مَبنية، بعضها فوق بعض ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾: أي تجري أنهارُ الماء واللبن والعسل والخمر مِن تحت قصورها العالية، وأشجارها المُتدلية، ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ أي: بهذا وَعَدَ اللهُ المتقين وعداً حقاً، لابد مِن إتمامه، و﴿ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾.

- الآية ٢١: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني أدخل هذا الماء في الأرض، وجعله عُيونًا نابعة ومياهًا جارية، ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ ﴾ أي بهذا الماء ﴿ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾: أي يَجفّ الزرع بعد خُضرته ونَضارته ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾: أي يجعله سبحانه متكسِّرًا متفتتًا بعد إخراج الحب منه، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في ذلك المذكور - ابتداءً من إنزال الماء، وإحياء الأرض به، وانتفاع الناس بالزرع، إلى أن يجعله الله متفتتاً - ﴿ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي تذكير لأصحاب العقول السليمة باستحقاق الله وحده للعبادة، وعنايته بمصالح خلقه، وقدرته على البعث.

- الآية ٢٢: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾: يعني أفمَن وَسَّع الله صدره، فسَعِدَ بقبول الإسلام والانقياد له ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي على بصيرةٍ من أمْره وهُدىً من ربه، كمن تكَبَّرَ عن الانقياد للإسلام، وضاقَ صدره بظلمات الكفر؟! لا يستويان أبداً، ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يعني: فهَلاكٌ للذين قَسَتْ قلوبهم عن قبول القرآن، فلم تؤمن به رغم وضوحه، ولم تعمل بما فيه، (فالله تعالى قد تَوَعَّدَ أصحاب هذه القلوب القاسية، التي لا تلين بسماع القرآن ولا تتأثر بحُجَجه ومواعظه، بل تقسو من سماعه) ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي في ضلال واضح عن الحق.

- الآية ٢٣: ﴿ اللَّهُ ﴾ سبحانه هو الذي ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ (وهو القرآن العظيم)، فجعله ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾: أي يُشبه بعضه بعضاً في نَظمه وحُسنه وعدم اختلافه، وَجَعَلَه ﴿ مَثَانِيَ ﴾: أي تتكرر فيه القصص والبراهين، والوعد والوعيد والأمر والنهي (وذلك للتذكير والموعظة وإقامة الحُجّة)، لأنّ هذا أفضل من سَماعه مرة واحدة (لكثرة غفلة الإنسان واهتمامه بالدنيا وتعلُّق قلبه بها)، ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ ﴾ أي ترتعد من سماع القرآن: ﴿ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (تأثُّرًا بما فيه مِن ترهيبٍ ووعيد) ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي تطمئن وتهدأ عند ذِكر وَعْده لأهل الإيمان والتقوى (استبشاراً بما في الجنة مِن النعيم)، ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي التأثر بالقرآن هو ﴿ هُدَى اللَّهِ ﴾ الذي ﴿ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ممَّن يستحق الهداية، ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي: فليس له أحدٌ يُوفقه إلى الحق والرشاد.

- الآية ٢٤: ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾: يعني أفمن يُلْقَى في النار مُقيَّداً، فلا يقدر أن يَتقي النارَ إلا بوجهه، أهذا خيرٌ أم مَن يتلذذ بأصناف النعيم في الجنة؟! لا يستويان أبداً، إذاً فليؤمنوا ولا يتكبروا، ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ﴾ في جهنم: ﴿ ذُوقُوا ﴾ العذابَ الشديدَ جزاءً بـ ﴿ مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من الشِرك والمعاصي.

- الآية ٢٥، والآية ٢٦: ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ - أي الذين مِن قبل مُشركي مكة - فقد كذَّبوا رُسُلَهم ﴿ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي مِن حيثُ لا يتوقعون مَجيئه ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ ﴾ أي عذاب الذل والهوان ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ﴿ وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ ﴾ الذي أعَدَّه الله لهم في جهنم ﴿ أَكْبَرُ ﴾ وأشد ألماً من عذاب الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (أي لو كانوا يعلمونَ ذلك لاتّعظوا ولم يُعانَدوا).

- الآية ٢٧، والآية ٢٨: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآَنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يعني أنواعًا كثيرة من الأمثال والأدلة وقصص هلاك الأمم المكذبة، لِتُقيم عليهم الحُجّة، و﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾: أي ليَتعظوا به ويؤمنوا، فينتهوا عما هم مقيمون عليه من الباطل، وجعلناه ﴿ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا ﴾ أي بلُغة عربية فصيحة واضحة، ليَفهموه ويَهتدوا به، فيَهتدي على أيديهم خَلقاً كثيراً، ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾: يعني لم نجعل في القرآن شيئاً مائلاً عن الحق والاستقامة، بل جعلناه كتابًا مستقيمًا معتدلاً (لا اختلافَ فيه ولا تناقض، ولا تَشَدُّد ولا تفريط) ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي ليَتقوا ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه بعد أن يتعظوا بما فيه.

- الآية ٢٩: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ بَيّنَ فيه حِيرة وضلال أهل الشِرك، وهو: ﴿ رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾: أي عبدًا مملوكًا لشركاء مختلفين ومتنازعين، فهو حَيران في إرضائهم، ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ يعني: وعبدًا آخر خالصًا لمالك واحد، وهذا العبد يعرف ما يُرضِي سيده فيفعله، وما يُغضبه فلا يفعله ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾؟! يعني هل يقول عاقل بالتساوي بين هذين الرجلين؟! (فكذلك لا يتساوى المُشرِك الذي يعبد آلهة متعددة (فهو في تعب وحَيْرة وشك)، مع المُوَحِّد (الذي في راحةٍ واطمئنان)، إذ يأمره إلهٌ واحد وينهاه، وهو الله الواحد الأحد، الذي لا رَبَّ غيره ولا معبودَ بحقٍ سواه، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على ظهور الحق وبُطلان الباطل ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمونَ عدم تساوي الرجلين المذكورين في المَثَل، وذلك لجهلهم وفساد عقولهم.

- الآية ٣٠، والآية ٣١: ﴿ إِنَّكَ ﴾ - أيها الرسول - ﴿ مَيِّتٌ ﴾ أي سوف تموت، ولن تُخلَّد في هذه الدنيا، ﴿ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (إذاً فلا يغترّوا بأنفسهم، ولا يتكبروا عن قبول الحق قبل فوات الأوان)، (وقد نزلت هذه الآية عندما استبطأ المُشرِكون موت الرسول صلى الله عليه وسلم وأرادوا الشماتة بموته، فأشارت الآية إلى أنه لا شماتة في الموت، فإنهم سيموتون كما يموت الرسول صلى الله عليه وسلم)، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ - أيها الناس - ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (والاختصام كناية عن الحُكم) أي يَحكم بينكم ربكم فيما كنتم فيه تختصمون من أمور الدين، فيُظهِر الحق ويَفضح الباطل.

****

٢. الربع الثاني من سورة الزمر

- الآية ٣٢: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ يعني: مَن أشدُّ ظلمًا ﴿ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ فزعَمَ أنّ له شركاء في العبادة، ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ أي كذَّب بالحق الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم؟! والاستفهام للنفي (يعني لا أحد أشد ظلماً منه، لتكذيبه بهذا الحق الواضح) ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾: يعني أليس في النار مَسكنٌ لمن جحدوا توحيد الله تعالى، وكَذَّبوا رسوله محمدًا؟! (بلى، فإنّ جهنم هي بئس المُستقَرّ لهم).

- الآية ٣٣، والآية ٣٤، والآية ٣٥: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ أي جاء بالحق - وهم الأنبياء - ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يعني: والذي صَدَّقَ بهذا الحق (إيمانًا وعملاً) ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ الذن حققوا التقوى لله تعالى، ففعلوا ما أمَر واجتنبوا ما نَهَى (وفي مُقدِّمتهم محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين)، فهؤلاء ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (من أصناف اللذات والشهوات)، و﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين يُحسنون عبادتهم لربهم، ويُراقبونه في كل أحوالهم، ويُحسنون معاملة خَلقه، وقد وفقهم سبحانه لهذا الإحسان ويَسَّرَهُ لهم ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ يعني ليغفر لهم سبحانه أسوأ أعمالهم - وهي المعاصي - بسبب توبتهم الصادقة، (ولعل المقصود بأسوأ عملهم هو أعظمهُ سُوءاً، وهو الشِرك الذين وقع منهم قبل إسلامهم)، ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾: أي يُثيبهم على طاعتهم بمِثل جزاء أحسن عمل كانوا يعملونه في الدنيا (حتى يكون أجر النافلة كأجر الفريضة).

- الآية ٣٦، والآية ٣٧: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ يعني: أليس اللهُ بقادرٍ أن يكفي عبده محمدًا تهديد المُشرِكين وكَيدهم فلا ينالوه بسوء؟! بلى إنه سيكفيه تهديدهم، ويحفظه مِن شرهم، وينصره عليهم، ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾: أي يخوّفونك - أيها الرسول - بآلهتهم التي زعموا أنها ستؤذيك، مع أنها أحجارٌ لا تنفع ولا تضر، إنّ هذا هو قمة الجهل والضَلال ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يعني: ومَن يخذله الله فيُضِلّه عن طريق الحق، فليس له أحدٌ يُوفقه إلى الحق والرشاد، ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ يعني: ومَن يوفقه الله للإيمان به والعمل بكتابه واتّباع رسوله، فلا يستطيع أحدٌ أن يُضِلّه عن الحق الذي هو عليه، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ﴾ أي لا يَمنعه شيءٌ مِن فِعل ما يريد، ﴿ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ أي صاحب انتقام شديد مِمّن عَصاه وعَصى رسوله وحارَبَ أولياءه؟! والجواب: بلى، فإنه سبحانه يقول للشيء كُن فيكون، (وفي هذا تهديدٌ لهم بأنه سبحانه سوف ينتقم منهم إن استمروا في أذاهم وكُفرهم وعِنادهم، كما حدث في بدر).

- الآية ٣٨: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ أيها الرسول: ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ على هذا النظام البديع المُتقَن؟ ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾: ﴿ اللَّهُ ﴾ هو الذي فعل ذلك وحده، إذاً ﴿ قُلْ ﴾ لهم - مُقرراً عجز آلهتهم من بعد ما اتضحت لهم قدرة ربهم -: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ - من الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر - فأخبروني إذاً: ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾؟! يعني: هل تستطيع هذه الآلهة العاجزة أن تُبعِد عني أذىً قدَّره الله عليّ؟! ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني: وهل تستطيع أن تمنع عني نفعًا يَسَّره الله لي، أو تحبس رحمة الله عني؟! إنهم سيقولون: (لا تستطيع ذلك)، إذاً ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أي يكفيني سبحانه كَيدكم وشَرَّكم، ولا حاجة لي بغيره، إذ هو الذي يجلب الخير ويدفع الشر، ولا مانع لِما أعطاهُ، ولا مُعطيَ لِما منعه، إذاً فهو وحده المستحق لعبادتي، وليست هذه الآلهة العاجزة، ولِذا

سأعبده وحده وأتوكل عليه، و﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أي: عليه يعتمد المعتمدون في جَلْب مصالحهم ودفع ما يضرهم، وبه وحده تتعلق قلوبهم.

- الآية ٣٩، والآية ٤٠: ﴿ قُلْ ﴾ - أيها الرسول - لقومك المُعاندين: ﴿ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي اعملوا على طريقتكم - التي أنتم عليها من مُخالفتي وعداوتي -، فـ ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على طريقتي التي شرعها لي ربي، ولن أتركها مهما فعلتم، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ - عند نزول العذاب بكم - ﴿ مَنْ ﴾ مِنّا الذي ﴿ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي يُذِلُّه ويُهينه ويَكسر كبريائه (هذا في الدنيا)، ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أي يَنزل به في الآخرة عذابٌ دائم، لا يَنتهي أبداً، ولا يفارقه لحظة.

- الآية ٤١: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ﴾ - أيها الرسول - ﴿ الْكِتَابَ ﴾ أي القرآن ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي لهداية الناس وإصلاحهم ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ الذي اشتمل عليه الكتاب (إذ كُلُّ ما فيه حقٌّ وعدل)، ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ بنوره، وعمل بما فيه، واستقام على منهجه: ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ يعني: فإنّ نَفْع ذلك سيعود له في الدنيا والآخرة، ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ - مِن بعد ما تبَيَّن له الهدى - ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ يعني: فإنما يعود ضرره على نفسه، ولن يَضرَّ الله شيئا، ﴿ وَمَا أَنْتَ ﴾ - أيها الرسول - ﴿ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي ليس عليك أمْر هدايتهم فتجبرهم على الإيمان، وإنما عليك البلاغ وقد بلَّغتهم، فلا تحزن إذاً على إعراضهم.

- الآية ٤٢: ﴿ اللَّهُ ﴾ سبحانه هو الذي ﴿ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾: أي يقبض الأرواح عند موتها بعد انتهاء أجلها (وهذه هي الموتة الكبرى)، ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ يعني: وكذلك يقبض النفس التي لم ينتهي أجلها - وذلك عند منامها - (وهي الموتة الصغرى)، ﴿ فَيُمْسِكُ ﴾ سبحانه ﴿ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ أي يَحبس عنده - مِن هاتين النفسين -: النفس التي قَدَّرَ عليها الموتة الكبرى ﴿ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ يعني: ويرسل النفس الأخرى - وهي نفس النائم - إلى استكمال أجلها ورزقها (وذلك بإعادتها إلى جَسَد صاحبها)، ولو شاء سبحانه ألا يعيدها إلى جسدها لَفعَل، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في قبض الله لنفس الميت والنائم، وحَبْسه لنفس الميت، وإرساله لنفس النائم، ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ - على قدرة الله على البعث - ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (لأن النوم كالموت، والاستيقاظ في النهار كالبعث بعد الموت).

♦ واعلم أن قوله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) لا يتعارض مع قوله تعالى: (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)، لأن الله تعالى هو الذي أمَرَ مَلَك الموت بفعل ذلك، فكأنه في الأصل هو الذي فعله، لأنّ هذا مِثل قول الحاكم أو الأمير: (لقد أنشأتُ كذا وكذا)، ومعلومٌ أنه لا يفعل ذلك بيَدَيه، وإنما يفعله الذين تحت سُلطته.

- الآية ٤٣: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾: يعني بل اتخذ المُشرِكون آلهةً يعبدونها، زاعمينَ أنها ستشفع لهم عند الله في حاجاتهم، ﴿ قُلْ ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾: يعني أتتخذونها شفعاء، حتى ولو كانت هذه الآلهة الباطلة لا تملك شيئاً حتى تشفع لكم، ولا تعقل عبادتكم لها؟!

- الآية ٤٤: ﴿ قُلْ ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ (يعني إنّ الأمر في الشفاعة لله وحده، لأنها لا تتم إلا بعد أن يأذن سبحانه للشافع، ويَرضَى عن المشفوع له)، إذاً فكيف تعبدون من دون الله معبودات باطلة لم يُنزل سبحانه بشأنها حُجَّةً تدل على أنها ستشفع لكم عند ربكم إذا عبدتموها؟!

﴿ لَهُ ﴾ سبحانه ﴿ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (فهو وحده الذي يتحكم في جميع الأشياء)، ومِن ذلك الشفاعة، فإنه لا يملكها إلا الله وحده، ولن يعطيها إلا لمن وَعَدَه بها (وهم المُوَحِّدون)، كما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ أي لا تملك الملائكة - التي يعبدها المُشرِكون - أن تشفع لأحد عند الله تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني إلا مَن أقر بتوحيد الله ونُبُوَّة محمد صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء هم الذين يستحقون الشفاعة، فيشفعون لبعضهم عند ربهم، وتشفع لهم الملائكة والأنبياء بعد أن يأذن الله لهم، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أيها الناس بعد موتكم للحساب والجزاء، ألاَ فاتقوا ما يُغضبه من الشِرك والمعاصي.

- الآية ٤٥: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ ﴾ أي نفرتْ وغضبتْ ﴿ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ - إذا سمعوا قول (لا إله إلا الله) -، ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ من الأصنام والأولياء وغيرهم: ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي يفرحون بشركائهم، (وهذا عائدٌ إلى افتتانهم بأصنامهم)، ونِسيانهم لحقوق ربهم، الذي خلقهم ورزقهم، بأن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً في عبادته).

♦ ولعل الله تعالى خَصَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة بأنهم هم المُنكِرون للوحدانية، لعدم خوفهم من عقاب الآخرة، إذ لو آمَنوا باليوم الآخر (الذي هو يوم الجزاء على أعمالهم)، ولو تَخَلَّوا عن أهوائهم وشهواتهم، وخافوا عقابَ اللهِ تعالى: لَاَستقاموا على الحق والخير.

- الآية ٤٦: ﴿ قُلِ ﴾ أيها الرسول - داعياً ربك - عندما يضيق صدرك من جدالهم وعنادهم: ﴿ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يعني: يا خالق السماوات والأرض، يا ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ يعني: يا عالم السر والعلانية ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾ يوم القيامة ﴿ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الإيمان بك وبرسولك، ومن القول في صفاتك بغير علم، (فاهدِني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تَهدي مَن تشاء إلى صراط مستقيم)، (واعلم أنّ هذه التكملة قد ثبتت في السُنّة، وإن كانت الآية لم تذكرها).

- الآية ٤٧، والآية ٤٨: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ يعني لو أنهم يَملكون كل ما في الأرض وضِعْفه معه: ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾: أي لَجَعَلوه فِداءً لأنفسهم ﴿ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (ولو فعلوا ذلك ما قُبِلَ منهم، ولن يَدفع عنهم من عذاب الله شيئًا)، ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾: أي ظهر لهؤلاء الظالمين يومئذٍ - مِن عذاب الله - ما لم يكونوا يتوقعونَ في الدنيا أنه نازلٌ بهم ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾: أي ظهر لهم جزاء سيئاتهم التي فعلوها (حيث نسبوا إلى الله ما لا يليق به، وفعلوا ما نَهاهم عنه) ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ يعني أحاط بهم - من كل جانب - العذاب الذي كانوا يَسخرون منه في الدنيا، فلم يستطيعوا النجاة والفرار.

- الآية ٤٩، والآية ٥٠، والآية ٥١: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ أي استغاث بنا لنكشف عنه تلك الشدة ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ ﴾ يعني أعطيناهُ ﴿ نِعْمَةً مِنَّا ﴾ (وهي كشف الضرَّ عنه، وإبداله بمختلف النعم فضلاً من عندنا، دونَ أن يطلبها منا): ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾: يعني إنما أُعطيتُ هذا العطاء بما عندي من العلم والمهارات والقدرة على اكتساب الأموال (وقد قال ذلك حتى ينسب الفضل لنفسه ولا يشكر ربه)، (أو لعل المقصود: على عِلمٍ عندي بأن الله يعلم أني أستحق ذلك فأعطانيه)، فرَدّ الله على ذلك الادِّعاء بقوله: ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ يعني: بل ذلك اختبارٌ من الله لعباده؛ لِيَنظر مَن يَشكره مِمَّن

يجحد نعمته ويُنكِر فضله ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمونَ أنّ ما أعطاهم الله من مال وصحة وعافية إنما هو فتنة لهم وليس لرضا الله عنهم، ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي قال مَقالتهم هذه مَن كان قبلهم (كقارون وغيره) ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي لم ينفعهم - حين جاءهم العذاب - ما كانوا يكسبونه من الأموال والأولاد ولم يدفعوا عنهم مِن عذابَ اللهِ شيئاً حينَ نَزَلَ بهم، ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي نزلتْ بهم عقوبة ذنوبهم التي عملوها، ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ أي مِن هؤلاء المُشرِكين، وقالوا هذه المقالة ﴿ سَيُصِيبُهُمْ ﴾ أيضًا ﴿ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي ستصيبهم عقوبة ذنوبهم، كما أصابت الذين مِن قبلهم ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي لن يُعجِزوا اللهَ تعالىٰ، ولن يُفلتوا من عذابه، (وقد أصابهم القحط سبع سنين وقُتِلَ زعمائهم في بدر، ولَعذابُ الآخرة أشد وأبقى).

- الآية ٥٢: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾ أي يُوَسِّع الرزق ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده، ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي: ويُضَيِّقه سبحانه على مَن يَشاءُ منهم (وليس ذلك لمحبةٍ لهم ولا لبُغض)، فإنّ رزق الله للإنسان لا يدل على حُسن حال صاحبه، (ولو كان كثرة المال دليلاً على حب الله لأصحابه ورضاه عنهم، ما أهلَكَ قارون وغيره)، ولكنه يفعل ذلك اختبارًا لعباده، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي التوسيع والتضييق ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يؤمنون بالله تعالىٰ ويعرفون حكمته ورحمته.

****

٣. الربع الأخير من سورة الزمر

- الآية ٥٣: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ بالمعاصي: ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾: أي لا تيأسوا من رحمة الله بسبب كثرة ذنوبكم، فـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ لمن تاب منها، ورجع إلى ربه صادقاً نادماً عازماً (مهما كانت ذنوبه)، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ ﴾ لذنوب التائبين ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بهم، حيث جعل التوبة نجاةً لهم من عذابه.

- الآية ٥٤: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾: أي ارجعوا إلى ربكم أيها الناس بالطاعة والتوبة ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أي اخضعوا له ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾: يعني مِن قبل أن يقع بكم عذابه ﴿ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ أي لا تجدون مَن يَنصركم لِيُخفّف عنكم عذاب النّار أو يُخرجكم منها.

- من الآية ٥٥ إلى الآية ٥٩: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (وهو القرآن العظيم)، فامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾، وأطيعوا ربكم وتوبوا إليه مِن قبل ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ يوم القيامة - وهي شديدة الندم -: ﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾: يعني يا حسرتي على ما ضيَّعتُ في الدنيا من طاعة الله تعالى وامتثال أوامره، ﴿ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ أي لقد كنتُ في الدنيا من المستهزئين بأوامر الله تعالى وبرسوله والمؤمنين، ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾: يعني لو أن الله أرشدني إلى دينه لكنت من المتقين (الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، بطاعته وطاعة رسوله)، ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ يعني يا ليت لي رجعة إلى الدنيا ﴿ فَأَكُونَ ﴾ فيها ﴿ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين أحسنوا طاعة ربهم، وأحسَنوا العمل بما أمَرَهُم به رُسُلهم، وخافوا اللهَ كأنهم يرونه، فرَدّ الله على تلك الأمنيات الكاذبة بقوله: ﴿ بَلَى ﴾ يعني: ليس القول كما تقول، فـ ﴿ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ الدالة على الحق ﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا ﴾ رغم وضوحها ﴿ وَاسْتَكْبَرْتَ ﴾ عن قَبولها واتّباعها ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾.

- الآية ٦٠، والآية ٦١: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ (بأنْ وَصَفوه سبحانه بما لا يليق به، ونَسَبوا إليه الشريك والولد)، فترى ﴿ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ يوم القيامة، ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾: يعني أليس في جهنم مأوى ومَسكن لمن تكبَّرَ على الله، فامتنع عن توحيده وطاعته؟ (بلى، فإنّ جهنم هي بئس المُستقرّ لهم)، ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ ﴾ من عذاب جهنم: ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي خافوا عذابَ ربهم وهُم في الدنيا (فأدَّوا فرائضه واجتنبوا نَواهيه)، فهؤلاء يُنَجِّيهم اللهُ ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أي بفوزهم وتحقق أمنيتهم، وهي الجنة، ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾: أي لا يمسهم من عذاب جهنم شيء، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما فاتهم من حظوظ الدنيا (لأنّ نعيم الجنة قد أنساهم كل شيء).

- الآية ٦٢، والآية ٦٣: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (حتى الأشياء التي صَنَعها الإنسان، فإنّ الله سبحانه هو الذي خَلَقَ مَصدر صُنعها، كالحديد وغيره، ثم عَلَّمَ الإنسانَ كيف يَصنعها) ﴿ وَهُوَ ﴾ سبحانه ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ إذ يدَبِّر جميع شؤون خلقه، ويَحفظ سبحانه أعمالهم ويُحاسبهم عليها، ﴿ لَهُ ﴾ سبحانه ﴿ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: أي له مفاتيح خزائن السماوات والأرض، يُعطي خَلْقَه منها ما يشاء، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي جحدوا بآيات القرآن وما فيها من الدلائل الواضحة، ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (أي الخاسرونَ في الدنيا بِخِذْلانهم عن الإيمان، وفي الآخرة بخلودهم في النار).

– الآية ٦٤: ﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول لمُشركي قومك: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ (ولا تصلح العبادة لأحدٍ غيره؟!) ﴿ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ الذين لم يعرفوا عظمة ربهم وجلاله، فعبدوا معه غيره.

– الآية ٦٥، والآية ٦٦: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ – أيها الرسول – ﴿ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ من الرُسُل أنك ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ بالله تعالى – على سبيل الفرض – ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ أي سوف يُبطِل الله ثواب عملك (لأنه لا يُقبل مع الشِرك عملٌ صالح) ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الذين خسروا دنياهم وآخرتهم، (فإذا كان هذا مِمَّن لا يُتصَوَّر منهم الشِرك فكيف بغيرهم؟!)، ﴿ بَلِ اللَّهَ ﴾ وحده ﴿ فَاعْبُدْ ﴾ أيها النبي ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لنعم الله عليك، وأوّلها نعمة التوحيد (لأن اللهَ سبحانه هو وحده الذي يُنظِّم الكون، وهو الذي يُدَبِّر أمور عباده، وهو وحده الذي يأمرهم وينَهاهم، وإلا لَتحَيَّرَوا بين إلهٍ يريد وإلهٍ لا يريد، فالحمدُ لله).

– الآية ٦٧: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (وما عظَّموه حق تعظيمه) ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي: من عظيم قدرته سبحانه أنّ جميع الأرض تكون في قبضته يوم القيامة ﴿ وَالسَّماوَاتُ ﴾ السبع ﴿ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (فسبحان الله العظيم، لو أتينا بأقوى أقوياء الأرض، فإنه لن يستطيع أن يطوي عدداً من الأشجار أو الأعمدة بيمينه)، ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنَزَّهَ الله وتعاظَمَ عن شِرك هؤلاء المُشركين (الذين يُساوونَ الخالق العظيم بالمخلوق العاجز الضعيف، ويعبدونه معه)، (وفي الآية إثبات القبضة واليمين لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، فلا تُشبِه يمين المخلوق وقبضته، لأنه سبحانه ليس كمِثله شيء).

♦ واعلم أنه ينبغي للمؤمن أن يتذكر هذه الآية قبل البدء في صلاته – وكذلك أثناء ركوعه – وأن يقول بقلبه: (سبحانك، ما أعظمك).

– الآية ٦٨: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾: أي نَفخَ المَلَك إسرافيل في "القرن" (وهو المعروف بـ "البوق") – وذلك عند اقتراب يوم القيامة – ﴿ فَصَعِقَ ﴾: أي مات كلُّ ﴿ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ عدم موته، ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى ﴾ يعني: ثم نَفَخَ فيه نفخة ثانية (وهي نفخةَ القيام من القبور للحساب والجزاء): ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ من قبورهم ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ ماذا يفعل الله بهم؟

– الآية ٦٩، والآية ٧٠: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ يعني أضاءت الأرض يوم القيامة عندما يأتي الله سبحانه للقضاء بين الخلائق ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾: أي وُضِعَ كتاب أعمال كل واحدٍ في يمينه أو في شماله ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ ﴾ ليشهدوا على أممهم، ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ (أي الشهود على الأمم)، وهم أمّة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون بتبليغ الرُسُل لأممهم إذا أنكرت الأمم هذا التبليغ، كما قال تعالى: ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي شهداء على الأمم السابقة أنّ رُسُلهم قد بَلّغتهم رسالة ربهم (كما أخبركم الله بذلك في كتابه)، ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أي قَضَى الله بين عباده بالعدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾: يعني أعطى الله يومئذٍ كلَّ نفس جزاء عملها مِن خيرٍ وشر ﴿ وَهُوَ ﴾ سبحانه ﴿ أَعْلَمُ ﴾ – حتى من العاملين أنفسهم – ﴿ بِمَا ﴾ كانوا ﴿ يَفْعَلُونَ ﴾ في الدنيا من طاعةٍ أو معصية.

– الآية ٧١، والآية ٧٢: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ ﴾ أي تسُوقهم الملائكة بعُنف وشدة إلى النار ﴿ زُمَرًا ﴾ أي جماعات (بحسب مراتب كُفرهم وعِصيانهم) ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ السبعة فجأة، حتى يُصابوا بالرعب والفزع،

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ (وهم الملائكة المُوَكَّلون بالتعذيب في النار)، فقالوا لهم قبل أن يصلوا إليها - مُؤنِّبين لهم ومُحسِّرين -: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ ﴿ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾؟!، فـ ﴿ قَالُوا ﴾ معترفين بذنبهم: ﴿ بَلَى ﴾ قد جاءت رُسُل ربنا بالحق، وحَذّرونا من هذا اليوم، ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾: أي وَجَبَتْ كلمة الله أنّ عذابه لأهل الكفر به، ونحن منهم، فوَجَبَ علينا العذاب، فحينئذٍ ﴿ قِيلَ ﴾ لهؤلاء الجاحدين: ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾: أي قَبُحَ مصير المتكبرين على الانقياد لأوامر الله والإيمان برُسُله.

- الآية ٧٣: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ وهم الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية (وذلك بتوحيده والعمل بطاعته)، فهؤلاء تسُوقهم الملائكة بلُطفٍ ﴿ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ أي جماعات (بحسب مراتب تقواهم وأعمالهم الصالحة) ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ﴾ أي الجنة ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ يعني: وقد فتحت أبوابها (والمعنى أنهم جاؤوها فوجدوا أبوابها الثمانية مفتوحة لاستقبالهم)، ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ (وهم الملائكة المُوَكَّلون بالجنة)، فقالوا لهم - مُرَحِّبين مُبَشِّرين -: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ مِن كل خوف وحزن وتعب ومن كل مكروه، ﴿ طِبْتُمْ ﴾: أي قد طُهِّرتم ونُقِّيتُم من آثار المعاصي بسبب توبتكم النصوح ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾.

- الآية ٧٤: ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي قال المؤمنون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ (الذي وعدَنا به في كُتُبه وعلى ألسنة رُسُله)، ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ﴾ وهي أرض الجنة، ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾: أي نَنزل منها في أيّ مكانٍ شئناه، ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ الذين اجتهدوا في طاعة ربهم.

- الآية ٧٥: ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ ﴾ يوم القيامة ﴿ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾: أي مُحيطين بعرش الرحمن من كل جانب ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾: أي يُنَزِّهون ربهم عن كل ما لا يليق به، ويُثنونَ عليه قائلين: (سبحان الله وبحمده)، ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾: أي قَضَى الله بين الخلائق بالعدل (فأسكن أهل الإيمان الجنة، وأسكن أهل الكفر النار)، ﴿ وَقِيلَ ﴾ أي قالت الملائكة والمؤمنون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ على ما قَضَى به لأهل الجنة (فضلاً وإحساناً)، وعلى ما حَكَمَ به على أهل النار (عدلاً وحكمة).

www.alukah.net

شبكة الألوكة

هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة

www.alukah.net

شبكة الألوكة - قسم الكتب